32

اختراق نحو حكم الأكثرية

لقاء ثان مع فورستر

فيما كنا نقترب من الذروة، كان النجاح يعتمد على ما إذا كنا نستطيع أن نقنع فورستر بالضغط على سميث، وما إذا كان سميث سيوافق على جوهر الملحق (C) وما إذا كنا سنقدر على إقناع رؤساء الصف الأول بقبول اتفاقية فعلية بدلاً من الحض على حكم الأغلبية.

في يوم السبت، 4 أيلول 1976 قابلت رئيس وزراء جنوب أفريقية جوهانز فورستر للمرة الثانية في غضون شهرين، وهذا حدث مهم في حد ذاته بالنسبة للأفريقيين الجنوبيين، لأنه كان يعني إنهاء عزلتهم الرمزية. كان موقع اللقاء فندق «غراند دولدر» الذي يقع وسط حديقة واسعة فوق هضبة تطل على ريوريخ. أصر السويسريون على هذا الموقع أكثر من أي فندق آخر في المدينة لأنه كان من الأسهل حمايته من المتظاهرين.

أَتبعتُ إجراء اللقاء بأن أثني أولاً بإيجاز على فورستر لاختياره الفندق، الأقل أناقة لى حد ما من فندق «دولدر وولدهاوس» الذي يقع على بعد نصف ميل في الطريق النازل، حيث تجمع المساعدون الذين أرادوا تجنب آلات تصوير الصحافة خشية التأثير السلبي في أفريقية وداخل الجماعة الأفريقية ـ الأمريكية. شعرت بثقة أن المجموعات الأفريقية ـ الأمريكية سوف تحكم علينا من خلال النتيجة النهائية، ولقد شجع الزعماء الأفارقة الحوار مع فورستر بوصفه مفتاح التقدم مع سميث.

لم يضع الزعيم الأفريقي الوقت في تفاصيل الملحق (C). فبعد أن وافق على حكم الأكثرية في روديسيا من حيث المبدأ، وافق على تنحية سميث إذا رفض الملحق (C)، كما عدل الموقف بشأن ناميبيا الذي وضعوه أثناء اجتماعنا في ألمانيا. تلك كانت قرارات تشتمل على بذور التطور في المستقبل. إذ سواء حلل فورستر ووفده كلياً مضامين القرارات، فإنهم كانوا قد شرعوا بالفعل بعملية تقود حتماً لى حكم الأغلبية في بلدهم أيضاً.

اتخذ قرار تأييد حكم الأغلبية في روديسيا، كانت دراما الاجتماع السابق غائبة. كانت ثمة ثلاث جلسات:

عشـاء عمـل يوم السبت فـي دولدر غراند استمـر أربع ساعات قدمـه لنا فورستر، وغـداء عمل على ضيافتي في اليوم التالي عالجنا فيه قضية ناميبيا بالدرجة الأولى، الذي يعتبره الجنوب أفريقيون خلافاً للهولانديـين الذين لا يعملون يوم السبت، مناسبـة اجتماعية، وجاء الاجتماع الثالث يوم الاثنين، 6 أيلول، واستمر أربع ساعات ولم تتخلله أية وجبات.

ركزت المناقشات، فيما يتعلق بروديسيا على الإجراء الكفيل بتنفيذ الوثائق التي أحضرتها من لندن: الملحـق (C) الذي يتناول الحكومة الانتقالية، والخطـة الأمريكية ـ البريطانية المشتركة حول الضمانات الدستورية والحوافز الاقتصادية للأقلية البيضاء. تم الوصول إلى اتفاق بسرعة تامة. أما التعديل الوحيد فقـد جاء مـن جانب جنوب أفريقية ويعكس عـدم الثقة بالبريطانيين : كان يتعلـق بوجوب اختيار أعضاء «مجلس الدولة» من قبل كل جماعة روديسية بدلاً من الحكومة البريطانية. وافق كالاهان وكروسلاند على هذا التغيير في حين أنني عدت إلى لندن.

أمـا فيمـا يتعلق بناميبيـا، فقد سجل اجتمـاع زيوريخ تراجعاً كامـلاً من جانب فورستـر من الموقف السابـق في جنـوب أفريقية. كان قد اقتـرح في ألمانيا أن دستـور استقلال ناميبيا يوضـع من قبل جميع القبائـل الناميبيـة المختلفة تحت وصاية جنوب أفريقيـة ولكن بدون مشاركة جنـوب أفريقية رسمية في «ويندهوك» عاصمة ناميبيا. وقد استبعدت «سوابو» من العملية.

الخطـة التـي وضعت فـي زيوريخ اقترحت نقـل المؤتمر من «ويندهـوك» لى جنيـف، بمشاركة الأمم المتحـدة «وحضـور» جنوب أفريقية ممـا يوفر آلية لضـم «سوابو» وحُدد يوم 31 ك1 عـام 1978 لإعلان الاستقلال (التسجيل الدقيق للمناقشات وارد في الوثائق المتبادلة بين الوفود)[1].

وفي تقريري إلى فورد في 6 أيلول وصفت الخطوات التالية :

> أنـا لا ـ وكـررت كلمة لا ـ أخطط كشف هذه الأوراق أمام أحد في هذه المرحلة، لأنه من الضـروري أن لا نكشـف موقف جنوب أفريقية القادم حتى يلزم الأفارقة الزنوج أنفسهم بصـورة ملموسة أكثر. في مؤتمري الصحفي في نهاية مباحثاتي، قدمت عرضاً متفائلاً ولكن بدون تفصيل.
>
> عندمـا سأذهـب إلـى أفريقية فـي الأسبوع القـادم سـأزور تانزانيا وزامبيـا لأثبّت مواقـف الزعماء الزنوج، ثم سأتجه إلى جنوب أفريقيـة للوصول إلى اتفاق نهائي مع فورستـر. (وفي الوقت نفسه سأرسل بيل تشافيل إلى هناك يوم الثلاثاء للاجتماع مع الزعمـاء الزنوج المجتمعين في دار السلام وإعطائهـم توصيفاً دقيقاً للمباحثات مع فورستر).

في طريق العودة إلى واشنطن، توقفت في لندن لبضع ساعات لتدقيق الوثائق المتفق عليها مع كالاهان وكروسلاند. وبناء على طلب كالاهان أرسلت بيل روجرز كي يُطلع زعيمة حزب المحافظين الجديدة مارغريت تاتشر على خططنا والوثائق المتفق عليها. وخشي كالاهان من أن تنضم إلى منتقدينا من الأمريكيين في الهجوم على حكم الأكثرية. ولكن مارغريت لم تفعل شيئاً كهذا. ووافقت على برنامجنا رغم أنها لم تكن تميل إليه. وبعد ثلاث سنوات عندما أصبحت رئيسة للوزراء، أنهت هي ووزير خارجيتها التناقض ما بين افتراض الشرعية الاستعمارية والقبول بالإجراء الذي كنا قد أوصينا به أصلاً بتعيين حاكم بريطاني ليقود روديسيا نحو حكم الأكثرية.

في عشية عودتي إلى أفريقية شعرت بالإحباط لا بسبب نتائج لقاء زيوريخ فحسب، بل الأكثر من ذلك بسبب موقف يوليوس نيريري. الناطق الرسمي باسم الجانب الراديكالي. فرغم أساليبه المعقدة كان ينحو بوضوح نحو تأييد التصميم المتطور. وفي 7 أيلول قال بيرنارد موغاندا من وزارة الخارجية التانزانية لسفيرنا إن نيريري يحثني على المجيء، وكلما أسرعن كان ذلك أفضل. في 8 أيلول تحدث نيريري باللهجة ذاتها إلى السكرتير المساعد وليام تشافيل الذي كان قد أرسل كي يحدثه عند اللقاء مع فورستر. وأعلمنا نيريري في حديثه عن الاجتماع السري لزعماء الدرجة الأولى مع الزعماء المعارضين، أن الوحدة، لسوء الحظ ما تزال تمتنع عليهم. الموقف المتناقض لزعماء المعارضة تجاه أحدهم الآخر يجعله قلقاً حول كيف سيجدون مخرجاً إلى حكم الأكثرية. كان من الواضح تماماً أنهم لم يتمكنوا من تشكيل قوة ـ وهذا احتمال «مُخجل» حقاً. ومع هذا فقد أخبر نيريري شوفيل أن المؤتمر أقنعه أن الضغوط الأمريكية ـــ البريطانية يمكن أن تؤدي إلى النجاح. وكشف تفكيره تجاه بعض زعماء روديسيا الذين يثق بهم، بمن فيهم «الأولاد المسلحون» ولكنه لم يقل شيئاً كثيراً إلا أنهم كانوا «دون» المبادرة بكثير.

في واشنطن، كاشف فورد وأنا الشيوخ وأعضاء المجلس، وفيما بيننا دعونا 74 عضواً من الكونغرس معظمهم من الهادئين بمراجعة الحكم على الأمر حتى يتم التوقيع على اتفاقية ما.

في غضون ذلك كان جيمي كارتر قد انتخب مرشحاً ديمقراطياً للرئاسة، وسعى فورد إلى الاتصال به فيما يخص المفاوضات الوشيكة. ولما كان الرئيس قد رفض عدداً من التعليقات التي قالها عنه كارتر، ولم يكن يريد أن يقدم منبراً لخصمه، فقد دعا وزير الخارجية السابق دين راسك، المستشار المؤقت لكارتر، للتحاور حول السياسة الأفريقية. كان راسك واحداً من الموظفين اللامعين في أمريكا. ولما كان قد عمل تحت إمرة الجنرال جورج مارشال فقد اكتسب شيئاً من إحساس ذلك الرجل بالواجب. وباعتباره وزيراً للخارجية لمدة ثماني سنوات، فقد وجد نفسه في المنصب حينما كانت الأمة تنزلق خطوة فخطوة نحو فيتنام. ولما كان أقل صنعاً منه منفذاً لتلك المأساة فقد كان لدى راسك احترام كبير للرئاسة التي أبقت على سيرته، وحتى أولئك الذين حضوا على التدخل قد تحولوا ضده.

عندمـا عُينت وزيـراً للخارجية كانت مكالمته علـى الهاتف أول مكالمة أتلقاها، كمـا كانت تهنئته لي مميـزة. إنه من النـوع الذي يهتم بالعمل لا بالشخص: «أقدم التهنئة رقـم 56» مُذكراً إياي بأنني بصفتي وزيـر للخارجيـة السادس والخمسين لا أملـك الاستمرارية وأن علـي أن أحافظ علـى مستويات خلفائي العظـام. كنت أهتـف إليه أحياناً عندما يكون عليّ أن أتخذ قراراً وشيكاً. كان حاضراً أبداً، وكنت أستطيع الاعتماد على حكمته الكاملة.

كان رد فعـل راسك على طلـب فورد المساعدة في فصل السياسة تجـاه أفريقية عن سياسة الأنصار يتّسم بالشجاعة:

«أنا هنا لست أكثر من وزير خارجية سابق. وبهذه الصفة أنا أدعم كل رئيس» . وقال إنه سيتحدث إلى كارتر بهذا الغرض، ولكن مهمته ستكون أكثر فعالية إذا ما طلب فورد ذلك شخصياً من خصمه.

تحدث راسك ثانية بعد يومين بطريقة حذرة ناقلاً جواب كارتر بحرص :

أنـا لسـت ناطقـاً باسم جيمي كارتر. لقد تكلمـت معه، وأستطيع أن أقـول لكم إن هناك فرصة طيبة إذا ما جرت الأمور بصورة ملائمة في أفريقية. الأهمية التي أراها أن نجتمع مع بعض ممثلي الزعماء الأفارقة، وأن نبقى على صلة وثيقة ببعض زعماء الكونغرس.

جولة أخرى مع نيريري وكاوندا

في مساء يوم الثلاثاء 14 أيلول في وقت متأخر دُعيت إلى دار السلام حيث رحب بي بحرارة ما يقارب المئتـي طالب متظاهر، بعضهـم كان مألوفاً لدي منذ زيارتي السابقة. كانت هناك لجنة استقبال تقليدية لاستقبـال الزعماء الغربيين الذين يصلون إلى هذه الولاية غير المنحازة، وكان وزير الخارجية الفرنسية يُعامـل بترحيب كامل في زيارته الأخيرة. لم يجد نيريري ما يُضير في ترتيب استقبال غير حار للمفاوض الرئيسـي باسـم حكم الأغلبية في جنـوب أفريقية. كانت طريقـة ملائمة بالنسبة لـه أن يلمّع المعتمدين المتطرفين حتى لو كان بالفعل يشجع سياسة معتدلة. ومن أجل أن يحمي نفسه كان على نيريري أن ينجح فـي أن يظهر نفسه مبتعداً عن الاستعماريـيـن ويضع الملامة بالنسبة لأي تصرف غير ملائم للنتائج على عاتق الديمقراطيات.

نجحـت في تجاهل المتظاهرين في المطـار، ولكنهم أصبحوا مزعجين عندما لحقوا بي إلى الفندق، حيـث جعلتني صيحاتهم مستيقظاً طوال الليل. وكما حدث في ذروة المظاهرة أن هتف نيريري كي يرحب بـي في دار السلام. وعبر عـن أسفه أثناء المحادثة لانزعاجي، مضيفاً أنـه في ظل الديمقراطية يصعب السيطرة عليها مع الأسف. وهو تفسير كان من الممكن أن أجده مقنعاً لولا أنني رأيت المركبات الحكومية التـي تنقل المجموعـات من المطار. أجبته بأن المظاهرات إذا لم تتوقف فـي الحال فسوف أمضي الليلة

فـي نيروبي وألتقي به في الصباح. وبعد15 دقيقـة اختفت الحشود بشكل مذهل في الحافلات نفسها التي جاءت بهم.

فـي لقـاءات اليوم التالي مع نيريري ومساعديـه كانت حرارة زيارتي الأولـى مفتقدة. فهدف إغرائي بـأن تلتزم الولايات المتحدة بمبدأ حكم الأكثرية قد تحقق، وبـات نيريري الآن مهتماً بالشكليات. وبحكم الضرورة بات هذا قائماً في العلاقات ما بين الدول الأفريقية ومن هنا جاء موقفه. وفي غضون فترة ستة أشهـر كان هناك اجتماعان خاصان، جلسة تمهيدية مـع المساعدين، وغداء رسمي. تابع نيريري أسلوبه المتقن الذي وصفته لفورد وكأنه يعطينا «الضوء الأخضر لمعظم مقترحاتنا بالنسبة إلى روديسيا وناميبيا فيما ينتقدوننا بشدة علانية».

عقد الاجتماع الخاص في مكتب نيريري الذي تسوده الفوضى، فالجدران مغطاة بخرائط كبيرة تُظهر المناطق التي تتألف منها تانزانيا، بدأ نيريري بوعد ترحيبي:

> دعونـي أؤكـد لكم أمراً واحداً، بحيث تكفّوا عن القلق. لن نسمح لقوات أجنبية بالوجود فـي زامبابوي وناميبيا. أستطيع أن أتكلم بثقة أكثر فيما يتعلق بكلا البلدين، لأن الرئيس سامورا (ماتشيل) وأنا كنا متقاربين أحدنا من الآخر، الكفاح المسلح قد سار بعيداً وليس لدينا أي اهتمام في استقبال قوات أجنبية.

كان هـذا مـن جانب يزيـل اهتمامنا الفوري الـذي كان يقلق دبلوماسيتنـا. ولكن ربما باستثنـاء، سامورا ماتشيـل، رئيـس موازمبيق، لم نكن نعتبر زعمـاء الخط الأول يمكن أن يدعوا قـوات أجنبية إلى بلادهم. كان قلقنـا الأكبـر أن يفقـدوا السيطرة علـى أراضيهم تجاه مقاتلي حـرب العصابات. وكان ثمة سـر صغير معقد يشترك فيه زعماء الصف الأول ولكنهم غير متحمسين لإعلانه: إذا انهارت روديسيا، على طريقة المستعمرات البرتغالية، فإن الفصائل الداخلية المختلفة فيما بينها في الوقت الحاضر قد تساند الاتهامات المتبادلة بالقوة. جميـع المراهنات عندئـذ ستسقط. مهما كانت القيود المفروضة حتـى الآن، طالما أن القوات المسلحة تحت سيطرة زعماء الخط الأول، سوف تختفي عندئذ. عند هذه النقطة، يمكن أن تدعو الفصائل المختلفة القوات الأجنبية كما حدث في أنغولا. ولما كان نيريري يعرف ذلك جيداً أفضل منا فقد حشد جميع زعماء الخط الأول ومجموعـات المقاومة فـي دار السلام في محاولة لفرض الوحدة فيما بينها. وهـذا أيضاً ما جعله يتجاوب مع المبادرات الأمريكية مهما كانت الشكوك الشكلية التي يتشدق بها من أجل مصلحة زملائه الأفارقة.

في الجلسة الافتتاحية، التي انعقدت في غرفة ذات سقف عال في مركز الحكومة، كرر نيريري بياناته المتشائمـة المتعلقـة بآفـاق مبادراتنـا الروديسية مع مناقشـة مفصلة لمقترحات الملحـق ث والبرنامج الاقتصـادي. قـال إن ترتيبات الحكومـة الانتقالية (موضوع الملحـق ث) أقل أهمية مـن تلك التي تضع مسودة الدستور النهائي:

إذا افترضنا حدوث معجزة ـ وهو ما أعتبره حقاً أعجوبة ـ وجعل فورستر سميث يقول: «حكم الأكثرية لا بـد أن يأتـي، ومن الأفضـل أن يأتي بطريقة سلمية، لذا أنا لو أنه سميـث، أو أي شخص آخر، وأن يدعو البريطانيون إلى مؤتمر دستوري.

كنـت قد علمت من كروسلانـد أن بريطانيا ستوافق على دعوة مؤتمر كهذا. وعلمت من فورستر ـ ولم يفعل ذلك نيريري ـ أن «معجزة» موافقة سميث على حكم الأغلبية كانت تنتظرني في بروتيريا.

مـا حصـل أن نيريري قد غير موقفه من ناميبيا منذ تكلم معه روجـرز وشوفيل قبل أربعة أسابيع. ثم قـال إن «سوابـو» ينبغي ألا يسمح لها باتخاذ شروط لأن مبـدأ مشاركتها في مؤتمر «ويندهوك» المعدل قد تـم الاتفاق عليه. ولما بات معنيـاً شخصياً في المناقشات المعقدة حول روديسيـا. لذلك كان من الأسلم سياسيـاً الاختلاف مع المساعـد الراديكالي، سام نيوجرما، رأس منظمة «سوابو». والأكثر من ذلك كانت ناميبيـا أقـل مـن أن تمثل تهديداً فوريـاً لاستقرار دول خط الجبهـة من روديسيا. ولهـذا كان من الأسلم سياسياً التمسك بالشروط القصوى.

كنـت قد أحضرت معي من زيوريخ البرنامج المتفق عليه للمفاوضات على مراحل تشارك فيها جنوب أفريقيـة و «سوابو» معـاً، مع الأعضاء الأصليين لمؤتمر ويندهوك، وسجـل مفاوضات مشابهة أخرى يلقي بظلال من الشك، في نهاية النهار، فستظهر جنوب أفريقية وسوابو في نهاية النهار على أنهما المفاوضان الأساسيان. ربما لهذا السبب ذاته أصر نيريري وكاوندا على قطع المسيرة، وترك المفاوضات منذ البداية لجنـوب أفريقيـة و «سوابـو». كان كلاهما مهتماً بروديسيـا، التي فرضت عليهما قـرارات معينة تؤثر في مواقفهما النسبية. ولما كانتا تفتقران إلى حدود مع ناميبيا. باستثناء شريط رفيع مع زامبيا، وإلى وسائل مادية لتأثر في النتيجة، فقد كانتا تستطيعان اتخاذ موقف متطرف من ناميبيا، مع المصالحة مع روديسيا. (تحليل نيريري العقلاني للمشكلة الناميبية في الجلسة الافتتاحية نجده في جدول الملاحظات)[2].

غـادرت دار السـلام في 16 أيلول متشجعاً ومترقباً: متشجعاً لأننا كنا قد حققنا بالفعل ما جئنا لأجله ـــ أي أن نتابـع تسوية مشكلة روديسيا وفقاً لشـروط الملحق ث وخريطة لناميبيـا، وإن كان ذلك يستغرق وقتـاً أطول ممـا كنا نتوقع، وكنت متوقعاً لأنه قبـل مغادرتي تماماً أظهر نيريري نفسـه في مؤتمر صحفي وكأنـه «أقل أملاً» ممـا كان قبل زيارتي الأولى، وفوجئ بزيارتي المقبلة مـع فورستر في بريتوريا. وعندما تعرض للضغط، أقرّ بأنه لم يقم بأي جهد لتشجيع ذلك. لهذا كانت توقعات نيريري لهذه المهمة متواضعة ومتنازلـة قليـلاً، إنها لا تفعل أكثر مـن «توضيح» المسائل وإطلاع الولايات المتحـدة على حقائق الصراع فـي أفريقية. ستكـون «معجزة» كما قال، إذا وافـق سميث على حكم الأغلبية. أمـا نيريري فقد سخر من «استحـواذ» كوبا لأمريكا، وكرر وجهـة نظره السابقة بأن الغرض من الرزمـة الاقتصادية ينبغي أن يكون تشجيع البيض على مغادرة روديسيا وليس لإعطائهم حافزاً للبقاء.

في غضون ذلك أصبحت معتاداً على أساليب نيريري بحيث أفهم أنني كنت أشاهد منظراً تمثيلياً، أي يؤكد في الواقع دبلوماسيتنا ويحضنها ضد الفشل. إمكانية «معجزة» كانت مفتوحة، ومحددة بالشروط ذاتها التي أوضحناها لنيريري والتي وافق عليها فورستر أساساً. مع هذا، لم أكن أريد أن تفرغ تصريحات نيريري كاوندا، ولذا أجبت، في مؤتمري الصحفي، بتذكير الصحفيين بأنني جئت بناء على دعوة ملحة من نيريري: «لم يتغير شيء مما عرفناه الأسبوع الماضي، ولهذا لا أستطيع أن أدلي بأحكام تقوم على أمزجة متقلبة» [3].

زيارة أخرى إلى لوساكا

الترحيب بكاوندا في زامبيا في 16 أيلول كان متحرراً من سلطة نيريري الحادة. إذ كان موقفه أكثر حذراً نظراً لأن الانفجار في روديسيا كان مؤكد الانتشار إلى زامبيا. لم تكن مهمتي بالنسبة له مناسبة للتنبؤ الفلسفي حول الأشكال الدستورية الملائمة لتحويل السلطة، بل وسيلة لتجنب صراع مسلح، الذي كان يعتبره ــ خلافاً لنيريري الملجأ الأخير ووسيلة للتهور، وعمل قريب من اليأس إذا فشل كل شيء. وكاوندا، خلافاً لنيريري لم يستخف بمهمتي علانية ولكنه اعتبرها فرصة أخيرة لإنقاذ جنوب أفريقية من كارثة. لقد شعر أن المظاهرات المعادية لأمريكا والسخرية العلنية (حتى لو كان الحوار الخاص إيجابياً) من شأنه أن يقلص من الدعم الشعبي في الولايات المتحدة. أو لعل تصرف كاوندا كان يعكس ببساطة طبيعته الخاصة. وأياً كان السبب، فقد رحب بي في مبنى المجلس التشريعي بكلمة مؤثرة بحيث أثنى على زيارتي لبيروتوريا مذكراً الجماهير أنه حتى هو، الزعيم الأفريقي، كان يعتبر حكم الأكثرية جائزة تستحق التفاوض مع فورستر. لذلك تمنى لي علانية أن يبارك الله رحلتي إلى بريتوريا.

كانت لحظة من اللحظات التي تعوض خيبة الأمل والمنافسة والسعي لخدمة الذات والتي كانت جزءاً من الحياة العامة.

الصيغة التي تجلت في أمارات ترحيب كاوندا كانت تدل على المحادثات الجوهرية. كان يبدو أقل توقاً حتى من نيريري لمناقشة الأحكام الخاصة بالملحق (C) أو الضمانات الدستورية. ولما كانت الشروط الفعلية للحكم المحلي سوف تتضمن مصالح سياسية كبيرة لكثير من الأطراف، لم يكن أي زعيم أفريقي مستعداً لأن يرتبط بكثير من التفاصيل بالنسبة لها. لم يبد كاوندا اعتراضاً تجاه الخط العام ووافق على إثارته مع فورستر وسميث معتبراً أنه مقبولاً أساساً. بوصفه جَسوراً في شؤون السياسة الأفريقية، إذ كان يعرف بأن طبيعة حكومة استقلالية في روديسيا ترتبط بمن سيتسلم مقاليد السلطة أكثر مما ترتبط بالأحكام الدستورية. لهذا كان اهتمام كاوندا الرئيس أن تتأسس الحكومة الانتقالية بسرعة، لأن مصالح نكومو الموالي له تعتمد عليها. ورغم أنه كان يدعي أن نيريري ساند نكومو أيضاً، فإن خبراء وزارة الخارجية الأفارقة عبروا عن شكوكهم الشديدة في هذا الأمر. فقد كانوا يعتقدون أن نيريري يمكن أن

يكـون راغبـاً في قبول نكومو إذا لم يكن لديه حل آخر وأنـه كان يفضل موجابي أيديولوجياً وسيفعل ما في وسعه لتحقيق آماله.

كان كاونـدا وكونـا يكرهان موجابي كرهاً عميقاً لأنـه لا يتمتع بأي تأييد داخل روديسيا وقد يكون هذا صحيحاً. ولكن موجابي لديه قوة عسكرية، ويسيطر دوماً على «الأولاد ذوي البنادق».

كان كاوندا ونيريري يرغبان معاً في ضغط أمريكي لتحقيق اختراق نحو حكم الأغلبية، ولكنهما اختلفا حـول خطوات تحقيقه إذا ما نُفّذ المبـدأ. كان كاوندا يريد سرعة تكوين حكومة مؤقتة برئاسة نكومو. أما نيريـري فكان يفضـل أن تبقى المسائل عائمة لأن كل شهر يمر سيعزز مـن قوة مقاتلي حرب العصابات، وبالتالي قوة موغابي.

عندمـا قابلـت جوشوا نكومو يـوم الجمعة 17 أيلول، بـدا غافلاً عن هذه الاتجاهـات، أو ربما فكر أنه يستطيع أن يحقق غرضه على نحو أفضل عن طريق عرض مطامحه كما لو أنها حقيقة واقعة. قدم تقويماً للوضع لا يتفق مع أي شيء سمعته أو رأيته في رحلاتي عبر أفريقية. كان يصف نفسه بـ «زعيم زيمبابوي» ــ وهو وصف لم يطلقه على نفسه أحد من الزعمـاء الأفارقة حتى من كاوندا. رفض كاوندا فكرة نيريري حـول المؤتمـر التأسيسـي ـ الذي كانت كل من الولايـات المتحدة وبريطانيا قد قبلتا به ــ على أساس أن الحكومة الانتقالية ستكون الحكم الوحيد تجاه الإجراءات المناسبة لصياغة الدستور. ولما كان يعتقد أنه سيفـوز فقد عزز هذا بالطبع، من دور نكومو. لم يكن زعمـاء الصف الأول ولا «أولاد البنادق» يدخلون في حسـاب هذا الشخص الضخم، المعتدل، الـذي فاجأني تبجحه كرد فعل على الوضع المتردي الذي بدأت الأحداث تمر من جانبه.

اختراق مع فورستر سميث

في مساء يوم الجمعة 17 أيلول، وصلنا إلى بروتوريا للتفاوض مع فورستر وسميث وهو ما سيقرر مصير مبادرتنا. ولما كنا نعي الضغوط الداخلية لم نعلن عن الاجتماع مع سميث مقدماً، والذي كان قد وصل إلى بروتوريا من أجل حضور مباراة للرجبي. كما طلبت بالتخلي عن احتفال الاستقبال الرسمي المعتاد.

انضم إلى فريقي المفاوض السفير جون إي. رايندهارت، وهو أمريكي أفريقي يعمل مساعداً لسكرتير وزارة الشؤون العامة. كنت معجباً دوماً بمهارته في التحليل وأستمتع بحس الفكاهة الساخر لديه. وعندما أصبحـت وزيـراً للخارجية قبل رايندهارت بمطلبي للعمـل أميناً عاماً مساعداً لشـؤون أفريقية لأنني كما قـال بدقـة : «أنت لم تـزر أفريقية قط»، مما كان يعني في رأيه أنني لم أُتـح له الفرصة كي يخدم بكفاءة فـي أفريقيـة. وقد عالجت هذا الوضع، وها هو رايند هارت قـد أصبح العضو الأساسي في فريقي للشؤون الأفريقيـة، يشارك في اجتماعات الموظفين وفي المفاوضات النهائية لمبادرات روديسيا وناميبيا. وكنت من وقت إلى آخر أطلب منه أن يترأس فرقاً لإطلاع دول أفريقية أخرى على حواراتنا المختلفة.

وفـي بريتوريا شـارك رايند هارت في كل لقاء مع زعمـاء جنوب أفريقية من أجـل أن يُبلّغ مفاوضينا الجنـوب أفريقيين بمعارضتنـا لسياسة التفرقة العنصرية بجـلاء. وكان مضيوفونا يعاملون رايند هارت بدقـة، إلا عندما يسترسـل فورستر في شرح نفسية الأفارقة السود للوفـد الأمريكي على طعام الغداء في «ليبيرتاس»، مقر رئيس الوزراء ذي الطابع البريطاني الامبراطـوري، والتوفير الموروث في أسلوب حياة الأفريـكان. كان فورستـر يتحدث عن فصيلتيـن رئيسيتين عند الأفارقة الزنوج، أولاهمـا أنهم لا يهتمون بالـكلام السطحـي بدلاً من الجوهر، والثانية أنهم لما كانـوا مزارعين فقراء قبل مجيء البوير، كانوا من البدو أساساً، ولا يستطيعون فهم أهمية بناء خزانات لتخزين مياه الأمطار أو تعلم مبادئ السقاية. ولهذا ظلـوا، فـي رأي فورستر، مزارعين مزعجين. لم يرفع رايند هارت عينيه عنـه أثناء المناقشة، ولكنه كان يذكر لي أحياناً أنه كان ناجحاً في سقاية حديقته المنزلية.

فـي صبيحة اليوم التالي، 18 أيلول، تناولنا طعام الإفطار في السفارة الأمريكية مع فورستر وزملائه، من أجل أن نراجع الوثائق المتفق عليها.

كان فورستـر يعيـد التأكيد علـى اجتماعنا القادم مع إيـان سميث، المقرر يوم الأحـد 19 أيلول. وفي اجتمـاع عقـد في 13 أيلول قـال فورستر إنه هدد سميث بالقبـول بالمبادئ الواردة فـي المذكرات الأنغلو أمريكية. وكان يكرر هذه المقولة أمام سميث بعد الإفطار.

أمضيـت باقـي النهار في السفارة الأمريكية مع مجموعتين مـن الأفريقيين الجنوبيين: الأولى زعماء الجماعتيـن الأفريقيـة والآسيويـة، ثم مـع معارضـي الإدارة الجنـوب أفريقيـة (كان الكونغرس الوطني الأفريقي محظوراً، ورئيسه نيلسون مانديلا ما يزال في السجن).

لخص تقريري إلى فورد ردود أفعالهم:

> كانـت الجلسة الأولى مـع عشرة ممثلين من الجماعـات الأفريقيـة والآسيوية في جنوب أفريقيـة، يتنوعون ما بين زعمـاء قبائل لى قادة اتحادات إلى أساتـذة جامعة. جميعهم كانـوا معارضين بقـوة لسياسة التفرقـة العنصرية «الأبارثيد». كانـوا واضحين وأذكياء وذوي شخصيات مؤثرة جميعهم كانوا من المعتدلين بالدرجة الأولى ويرغبون في مجتمع إنسانـي متعـدد الأعراق حيث لا يسيطـر عرق على آخر. وكانت رسالتهـم المفزعة أنهم كانـوا الجيل الأخير الذي يهتم بالحلول المعتدلـة، وأن الأجيال الجديدة منهم قد تخلت عن الاعتدال واعتنقت سياسة العنف..

المجموعة الثانية التي قابلتها كانت مؤلفة بالدرجة الأولى من البيض المعتدلين من زعماء المعارضة الليبرالية، ورؤساء تحرير الصحف، ورجال الأعمال.

جميعهم كانوا يأملون من حكومتهم بخطوة مبكرة إعلان برنامج لإنهاء التفرقة العنصرية. وكانوا يختلفون فيما بين التأكيد على نظام اتحادي، وفرص اقتصادية متكافئة.. إلخ. لم يكن ثمة إجماع حول الأساليب، ولم يكن لدى أي منهم برنامج واضح. التشوش لدى المعتدلين البيض كان أحد العوامل الأكثر مأساوية للوضع في جنوب أفريقية.

كان زعيم الزولومانغو سوثو جاتشا بوزيليزي واحداً من أكثر من فاوضتهم تأثيراً. إذ قدم التماساً قوياً باسم مانديلا وحذر من تسويات لروديسيا وناميبيا تعزز سياسة التفرقة العنصرية ـ وهو تحذير أخذته على محمل الجد بقوة. فكتبت تقريراً إلى فورد:

أية تسوية لعلل ناميبيا وزيمبابوي السياسية التي تعزز قوة السيد فورستر ستخلق بالتأكيد موجة جديدة من اليأس تجعل خيارات العنف هي الخيارات الوحيدة للواقعيين السياسيين.

العبارات الدبلوماسية نادراً ما تكون درامية، فهي عادة تتألف من وثائق فنية أو بيانات رسمية تهم الرجل العلماني. ولقائي مع إيان سميث وسبعة من مستشاريه، يوم الأحد 19 أيلول، لم ينغمس في أي من هاتين الفئتين هذه. إذ لم يلتقِ أي مسؤول أمريكي كبير من قبل مع سميث. الزعماء البريطانيون خبروهم، وزعماء الصف الأول من الأفارقة كانوا يمتعضون منهم. ومع هذا فإن الزعماء الروديسيين الثمانية الذين حضروا إلى السفارة الأمريكية بدوا أشبه برجال الأعمال الإقليميين البريطانيين متوسطي الدرجة أو بالمزارعين أكثر مما بدو كالميكيافيليين ذوي المراس. لأسباب تتعلق بهم أو بالروديسيين إذ رماهم القدر في أحضان قوة عظمى صممت على أن تنهي البنية السياسية التي كانت تمثل طريقتهم في الحياة.

لم أكن أنظر إلى الأمام حتى لا أواجه أتحمل مسؤولية كبرى عنه. ما كانت الأمور لتصل بالتأكيد إلى هذه المرحلة بسرعة لو أن الحكومة الأمريكية لم تصر بقوة على حكم الأكثرية أو فشلت في إقناع زعماء جنوب أفريقية في تأييدنا. ولما كنت مقتنعاً بالحاجة الأخلاقية والسياسية لمنهجنا فقد دفعت بالسياسة عبر واشنطن التي ستكون سعيدة جداً بتجنب التناقض الناجم. ومع هذا فقد كانت دبلوماسيتي هي التي أقفلت أي طريق للهرب أمام سميث، ومع هذا لم أعمد إلى أن أخبر مفاوضيّ أن طريق حياتهم آيل إلى طريق مسدود.

في تعاملي مع إيان سميث وزملائه لم أر سبباً لإذلاله، وخاطبته بلقب «رئيس الوزراء» ومما يدعو للسخرية أن سميث كان عندما يقابل مسؤولاً أمريكياً (أو بريطانياً) كانت المقابلة في إطار الموافقة على وثيقة تلغي مركزه. عاملته كرجل دولة أكثر مما عاملته كشخص منبوذ مما جعله يقبل بضروریاته دون أن يتعامى عن أخطائه.

بـدأت اجتماعنـا، الذي جرى في مقـر إقامة السفير الأمريكـي وليام بودلير، بتحليـل الوضع الدولي لأوضح أن ما أقصد إليه كان على المدى الطويل مصلحة السكان الأوروبيين في روديسيا:

إن سقـوط أنغولا قد فُرض علينا من قبـل مجلس الكونغرس لدينا، كما أن وجود 17 ألف من القوات الكوبية قد خلق وضعاً يجعل الأحداث لاتُحسم إلا بتدخل خارجي، ولا يمكن أن يكون هناك تدخل أجنبي، ولا دعم أمريكي...

وتفيد استخباراتنا أن الإنهاك سيقع عليك، وغياب مساعدة أجنبية سيجعل الموقف أكثر فأكثـر تعقيداً. أنا لا أرى من أين ستأتي المساعدة الأجنبية، إذ لايوجد دعم داخلي لهذا الموضوع في أمريكا.

هنـاك محافظون كثيرون في أمريكا أبطال في الـكلام ولكنهم لا يصوتون على مساعدة عسكريـة لأحد. فجيمـي هيلمز، على سبيل المثـال، الذي يتهمني بأننـي عميل شيوعي، صوّت ضد مساعدة لأنغولا، في حين كنت أنا الوحيد المدافع عنها.

أجـاب سميث بأنـه مستعد للقيام بأشياء «لا يتوقـع أحد أن يقوم بها» ولكنـه مضطر أن يبلغني ما هـو ممكن وأن تعديـلاً دستورياً يتطلب موافقة ثلثي مجلسه البرلمانـي (الأبيض). عند هذا دخلنا في مناقشـة مفصلة حـول أحكام المذكـرات الأنغلو- أمريكيـة المختلفة. حلل سميث بهـدوء المضامين العمليـة لمثل هـذه الأحكام مشيراً إلى صعوبـات بعضها وسأل تفسيراً لبعضهـا. حذرته بأن تجاوز ما اتفقنـا عليـه مـع البريطانيين يعرض للخطـر ما قد تحقق لأنـه سيمكن زعماء الخـط الأول من إثارة مطالب جديدة لهم:

إذا أشـار الإنكليـز، ولو بموقف سلبي تجاه الزعماء السود، فـإن ما سنوافق عليه هنا هو بدايـة مفاوضـات، ولـن نخدمك أو نخـدم أنفسنا لذا كنـا حريصين جداً فـي الأسابيع الأخيرة على أن نبقي الإنكليز معنا.

بعـد ثلاث ساعات من استكشاف ما يُعرض، وصلـت بالأمور إلى القمة. كان أمام سميث ثلاثـة خيارات واقعيـة. قلت: إن تقبل بالأحـكام الأساسية للملحـق (C)، وإما أن تعطي إجابـة غامضة، وإما إن ترفض شروطنا ولكن إذا حاربتهـا الآن، فسوف تواجه بعد سنة مـن الآن الوضـع نفسه في ظروف أكثـر مأساوية...» وإذا رفضت فلـن نفعل أكثر من أن نتـرك الطبيعـة تأخذ مجراها. وعند هـذا سلمته مذكرة تصل إلى حـد الإنذار. نقاطها الخمسـ تتفق مـع الأحكام الخمسـة الرئيسية للملحـق (C) وهي ما أعتقـد أن الإنكليز يوافقون عليها، وسيقبلها بالنهاية الزعماء الأفارقة (اقرأ الملاحظات)[4].

طلـب سميث فرصة لمناقشة المذكرة مع زملائه. فاتفقنا على المقابلة في غضون ثلاث ساعـات في الساعة الخامسة مساءً في مقر إقامة فورستر الرسمي. ثم افترقنا بدون أن يشيـر أي منـا إلى حقيقة أن حكم البيض في روديسيا كان ينصرم، وأن تفاوضنا لم يكن أكثر من عقد صفقة عمل صعبة يجري عقدها:

سميث: أنا ممتن بعمق للوقت الذي كرسته لنا لوضع هذه النقطة على الخريطة.

كيسنجر: أود أن أعبر عن ترحيبي للطريقة التي أدرت بها الأمور أنت وزملاؤك في ظل أصعب الظروف.

قمـت بما هـو ضروري، ولكـن عواطفي اتجهت نحـو الجماعة المكلفـة بمهمة شاقة والتـي بذلت كل جهدها، واقتربت من النجاح.

كان الاجتماع مع الوفد الروديسي في ليبيرتاس بحضور فورستر وزير خارجيته. وهما بمثابة الضامنين غيـر الرسميين بأن يقـوم سميث بالجزء المناط به من الصفقة. وقد جاء سميث شخصياً كي يوافق على نقاط البرنامج الخمس:

عندما وضعت هذه النقاط أمام زملائي أصابهم الخوف إذ كانوا يتوقعون أن آتي إلى هنا وأقناعـك بأنهم غير موافقيـن. ولكن بعد أن سمعنا الدليل، قـررت أنا وزملائي أن نعود ونقنعهم. كان ينبغي أن نتجنب عدم إقناعي لهم.

بهـذا تكـون مسألة مستقبل روديسيا قـد تحولت إلى مسائل تمهيديـة متتابعة حول توزيع السلطـة في الحكومـة الانتقالية. وطلب منـي سميث للحيلولة دون ذعـر السكان البيض أن تكـون حقيبتـا الدفاع والأمن الداخلـي في يد وزيرين من البيض خـلال سنتي الفترة الانتقاليـة تحت رئاسة رئيس وزراء زنجـي. فوعدت بأن أطرح الفكرة ولكنني حذرت بأن البريطانييـن قد لا يتعاطفون معهـا وأن الرؤساء الأفارقة قـد يرفضونها، رغم أن وجود وزيـر أبيض في واحد من المواقع الأمنية قد يكون مقبولاً. كما حضّ سميث على أن ترفع العقوبـات وأن تتوقف حرب العصابـات حالما تتشكل الحكومـة الانتقالية، وعندما طلب تأكيـدات بتأييد أمريكي إذا ما استمر مقاتلو حرب العصابات في هجماتهم حتى بعد أن تقـام الحكومة الانتقالية، وجدت نفسي مضطـراً أن أقدم له تقويماً صريحاً حول حقائق الوضع الداخلي الأمريكي:

إذا كانـت حكومـة جمهورية هي التـي تستلم السلطة، وكان هناك حـرب عصابات (بعد تأسيس الحكومة الانتقالية)، فسوف نقدم لكم على الأقل دعماً دبلوماسياً وننظر بعطف

إلــى الآخرين الذين يقدمون الدعم العسكـري إذا حدث تدخل شيوعي، فسنكون قادرين مــع ذلك على الاستمرار في الأمر وإذا كانت هناك حكومــة ديمقراطية فعليّ أن أقول إن هــذا الدعم لن يحصــل... لا أعرف ما إذا كان بالإمكان إقنــاع الكونغرس أن يتخذ شيئاً ما.

وافترقنــا علــى أساس أن يُعلم سميث زمــلاءه، وأقوم باستشارة نيريري وكاونــدا. وسأعلم سميث في غضــون 72 ساعة ما إذا وافق زعماء الصف الأول علــى النقاط الخمس. وأن عليه أن يعلمني خلال المدة نفسها ما إذا كان يستطيع أن يعلن الموافقة باسمهم.

عنــد هذه النقطــة سمح سميث لنفسه بأن يعلن تعليقاته الشخصية. كنــت قد أكدت على أهمية إقناع زملائه، لأنه إذا فشلت جهودنا بعد أن كاشفت كاوندا ونيريري، فسيكون هذا بمثابة «إلحاق ضرر بكرامة الولايات المتحدة». أجابني سميث:

أعــي أن هذه هــي المرة الأولى التي أتعامل فيها معك. أعــرف صورتي في العالم، وأنني محتال ـ بفضل اتهامات الصحافة البريطانية. أصدقائي يقولون عني إنني أمين جداً.

مهما كان سجل سميث في مفاوضات أخرى، فقد حافظ على كلمته وتصرف بشكل سليم وبأمانة في تعامله مع الولايات المتحدة.

بعــد ثــلاث ساعات من هــذا النقاش، قابلت رجال الإعــلام المحذلقيــن الذين تخفي حذلقتهم مشاعر ذلك النهار:

أخبــرت السيــد سميث بالاقتراحات التــي وضعتها الولايات المتحــدة وبريطانيا معاً بعد التشاور الوثيق مع زعماء أفريقية السوداء. السيد سميث وزملاؤه درسوا هذه المقترحات وعــادوا الآن إلى سالزبوري. أنا راضٍ لأن السيــد سميث وثلاثة من المتعاونين المقربين منــه ســوف ينقلون أشيــاء إيجابية إلى زملائهــم الآخرين. وبعد المشــاورة مع زملائهم سيأتون ليقدموا هذه المقترحــات إلى مؤتمرهم الحزبي. وفيما تسير العملية الروديسية الأساسية سأسعى للحصول على توضيحات مؤكدة من الزعماء الأفارقة، ولا سيما الرئيس كاوندا والرئيس نيريري. نعتقد أن عمليتي التوضيحات والمشاورات سوف تنتهي في نهاية هذا الأسبوع[5].

كل خطــوة نحو الأمام في قضية روديسيا ستفرض خطــوة مماثلة على ناميبيا. لهذا بعد اتخاذ إعلان بشأن روديسيا، قابلت فورستر كي أطلع على اعتراضات نيريري فيما اتفقنا عليه بشأن ناميبيا في زيوريخ. عدلنــا بعض المواد. على سبيل المثال، لم يوصف المؤتمر المقترح حول ناميبيا على أنه استمرار لمؤتمر

ويندهـوك، بل كجهد جديد منفصل، كما رُفعت درجـة ممثل جنوب أفريقية من «أداة وصل» إلى درجة أن يحصل على سلطة كاملة في التفاوض حول «القضايا التي تتعلق بجنوب أفريقية»، والمشاركة في المؤتمر أصبحـت مفتوحـة، بمعنى أن منظمة «سوابو» لم تعد بحاجة إلى دعوة خاصـة. وتم التأكيد على استقلال ناميبيا بحيث يتم في وقت لا يتجاوز 31 كانون الأول، 1978.

الوقت الآن قرابة منتصف الليل. بعد 7 ساعات من المفاوضات حققنا الأهداف التي وضعناها نصب أعيننـا. استغرقت خمسـة شهور منذ خطبة لوساكا لاختراق حكم الأكثرية فـي روديسيا، والتي رأيت منذ البدايـة خلافاً لشكـوك الكثيرين ــ ولا سيما البريطانيين ــ أن سميث سيحافظ على وعـده في اللحظة الأخيـرة. وفي ناميبيا، أوجدنـا إطاراً تفاوضياً يؤدي بالتأكيد إلى اختـراق مماثل عندما تكون دول الخط الأول مستعدة لذلك.

رد فعل كاوندا ونيريري

الرفيق الملازم غالباً للنجاح الدبلوماسي هو الانهاك أكثر من الابتهاج لأن تحقيق الاختراقات الدبلوماسية يُولّد عادة مجموعة جديدة من المشكلات، بدءاً من تنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

هـذا ما كان عليه الوضع بالتأكيـد فيما دبلوماسيتنا تجاه أفريقية تتجه إلى الـذروة. سأعود الآن إلى لوسـاكا ودار السـلام لأُعلم الزعماء الزامبيين والتانزانيين أن الاقتراحـات التي وافقوا عليها بشكل عام قبـل ثلاثـة أيام قد قُبلت بالتفصيل. ما هو رد فعلهم على تحقيـق الاقتراحات التي كانوا يطالبون بها منذ أكثـر من عقد مـن الزمان؟ هل سأكون في وضـع يجعلني أُعلم سميث يوم الأربعـاء (بعد ثلاثة أيام) أن الزعماء الأفارقة يلتزمون بخطة النقاط الخمس؟ أم أنهم سيتهربون من التزامهم القاطع؟ لايوجد زعيم أفريقـي يريد أن يكون في موقف الموافقة علـى حل تتصّل منه سميث في آخر لحظة؟ ولا أحد يأخذ على عاتقه أن يعيق اختراقاً، أو يجرؤ على انتقادات يسيرة.

فـي رحلتي الجويـة من بروتيريا إلى لوسـاكا، حذرني جون راينهاردت أنه من غيـر المتوقع أن يوافق زعمـاء الصف الأول ببساطة علـى كلمات سميث. فمن أجل إرضاء ناخبيهم لا بد من إيجاد طريقة لإبعاد أنفسهم بحيث يستطيعون الوصول إلى استخلاص تنازلات إضافية. لقد تحول راينهاردت إلى إنسان عالم بالغيب.

رد فعـل زعمـاء زامبيا يتطابق مع هـذه الازدواجية. في لقاء استمر ثلاث ساعـات على الغداء في 20 أيلـول، أثبـت كاونـدا ـ الذي يميل عادة إلى الحذر منـه إلى المبادرة ـ إلى أن المـرء ينبغي ألا يكون قائد حركة استقلال منتصرة بدون شعور دقيق بحقائق القوة. طرح أسئلة عميقة حول برنامج النقاط الخمس وكان حريصـاً في التأكيـد على الحاجة إلى استشـارة زملائه الزامبيين مثل نيريـري، وممثلي المقاومة الخارجيـة. مـن أجل كل هـذا أظهر الرضى. فقد أيد النتيجـة بالنسبة لناميبيا بـدون أهلية. وعند نهاية

الوجبــة، تخلــى عن تحفظه الأولي تجاه روديسيا: «نريد أن نعبر عــن الرضى عن كل ما فعلت. نستطيع أن نــرى النــور هنا. إذ ثمة فرصة للنجــاح». وأضاف مارك تشونا أنه تم تحقيق «تقــدم هائل» لم يعتقد أحد أنه كان ممكناً.

عنــد وقت الغداء كان كاوندا قد أقنع نفسه أن الخطة الأساسية كانت قوية حتى في تفاصيلها، وأكد علــى الحاجة إلــى السرعة في تنفيذها. ولسوف يحث نيريري على تسهيــل حكومة انتقالية حتى قبل أن أصــل إلــى دار السلام عند الظهيرة في اليوم التالي. التحرك بسرعــة كان أمراً حاسماً إذا كان نكومو، صديــق كاونــدا، لديه أية فرصة لتحقيق السلطــة. وفي نهاية الغداء انضم نكومــو إلى الجماعة، وغادر كاونــدا عــن قصد معين مع أن تشونا ظــل باقياً. حذّر نكومو الأكثر واقعيــة أن نيريري سيقوم بكل جهد ممكن للحيلولة بينه وبين استلام السلطة. في اليوم التالي قبل أن أغادر بقليل لخص ضيوفي الزامبيين أهدافهــم. قــال نكومو لي : «مهمتك أن تدفع سميث، وهذا ما فعلته». وكانت كلمات كاوندا عند الوداع : «الشيء الأساســي أن تتشكل الحكومة المؤقتة. الشيء الأساسي هو مساندة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة».

كلمــا تحــدث كاوندا عن انعكاســ النتيجة على بريتوريــا، ازداد حماسة. فبعد يومين، في حديث مع تشوفيــل فــي 23 أيلول، أي قبــل يومين من الخطبة المقررة لسميث عبر عــن «سعادته ورضاه» عن الورقة التي تم الاتفاق عليها في ناميبيا، وأكد لتشوفيل أن لا وجود لمشكلة معها. وفي روديسيا كان كاوندا متفائلاً أيضاً. إذا قبل سميث الاقتراح الأمريكي، فقد أكد لنا كاوندا تأييده ووعد «بتحريك كل شيء» إلى الأمام.

وكمــا توقعت فإن يوليوس نيريري المقتدر لم يكــن يشارك كاوندا في شعوره بالإلحاح. فبعد أن تحقق الاختــراق، كان يريد أن يقلص دورنا لا أن يعززه. وبالنسبة لنيريري كانــت المعركة قد بدأت الآن فقط. ورأى كاونــدا فيمــا تحقق وسيلة لاستقــرار المنطقة، وحماية سلامة بلاده وضمــان حكم الأكثرية في ظل حكومــة معتدلة بالنسبة لجيرانه. كان نيريري، الذي يعتبر نفســه الزعيم العقائدي لعدم انحياز أفريقية وزعيــم النضال ضد الاستعمار، يعتبر روديسيا جــزءاً من نضال مستمر. لم يكن يريد لها أن تظهر نتيجة لصفقــة مع الإمبرياليين (ولاسيما الولايــات المتحدة) بل كانتصار معنوي حققتــه أفريقية الراديكالية. وظــل نيريري يلح على مؤتمر دستوري تحــت رعاية بريطانيا (بدون تشجيع من بريطانيا بالتأكيد) والذي ستكون نتيجته العملية تأخير تشكيل حكومة انتقالية لبضعة أشهر.

وبالنتيجــة، في اجتماعنا في 21 أيلــول، أمضى نيريري اليسير من الوقت في استكشاف خطة النقاط الخمســ لروديسيــا. وعندما أخبرته عــن الإجراء المقترح وتهديد فورستر بقطــع النفط عن روديسيا إذا تراجع سميث عن تأكيداته قال نيريري : «أنا سعيد تماماً على هذا الأساس». بعد مزيد من الشرح أضاف : «هذا يبدو لي أمراً جيداً، أعتقد أنك فعلته... أنا سأعطي فرصة».

OpenKandle.com

ولكـن موافقة نيريـري صعدت إلى استعداد حـذر للمعركة القادمة. كان يحضّ علـى مؤتمر تأسيسي تحـت رعاية بريطانيا ويريد منه أن يحـدد الحكومة الانتقالية بعد أن يتم الاتفاق على المبادئ الدستورية الأساسية، وبذلك يكون قد أضاف مستويين للتأجيل: الأول عقد المؤتمر ثم الموافقة على المبادئ. وأثناء المفاوضـات المطولة كما هـو منتظر، فإن قضية مـن يحكم في روديسيا ستظل مفتوحـة، وسيظل رجال العصابات في أماكنهم، وتستمر العقوبات، ويكتسب «أصحاب البنادق» نفوذاً، وآمال نكومو تراجع.

رغبة نيريري في تعزيز أوراق اعتماده الراديكالية أسهمت في صياغة استجابته للاقتراحات المعتدلة حـول ناميبيا. أقر بوجود «حركـة كبيرة» في بريتوريا. ولكن في تناقض حاد مـع كاوندا كان مصمماً على ألا يتعـاون فـي أية صيغة توضع للسماح بانسحاب جنوب أفريقية في مهلـة سنتين. لا بد أن تقبل بريتوريا بـ «سوابـو» باعتباره مفاوضاً شرعياً وحيـداً منذ البداية، إذا كانت جنوب أفريقيـة تريد أي ناميبيين من غيـر سوابـو للمشاركة في المؤتمر، فعليهم أن ينضموا إلى وفد جنـوب أفريقية. قبلة الموت بالنسبة لهم. وبالنسبة لناميبيا فإن التقدم خطوة خطوة لم يكن كافياً، وأصر نيريري على أن تقبل جنوب أفريقية بذلك كثمن لدخولها المفاوضات.

قبل أن أغادر دار السلام بقليل، عقد نيريري مؤتمراً صحفياً آخر، أكثر تفاؤلاً من مؤتمره الأول. وافق علـى تحقيـق تقدم وعزا ذلك إلـى الصحافة أكثر مما عزاه إلى الولايات المتحـدة : إذا وافق سميث على الخطة الأمريكية فسيكون هناك أساس للتفاوض، وسوف يحض الفصائل الروديسية كافة على الانضمام بمـن فـي ذلك رجال العصابات. ما كان يسعى إليه نيريري هـو افتتاح المفاوضات بدلاً من تفاصيل خطة النقاط الخمس كما فعل بشكل خاص. ومن ناحية ثانية فإن أساليبه كانت تعكس اهتمامه بأن رجال حرب العصابـات لن يوافقوا على حكومة إقليمية يفرضهـا مؤتمر زعماء الخط الأول (كما كان كاوندا يفضل). والنتيجـة قد تكون وضعاً أنغولياً مع عـدة فصائل سوداء تبقى خارج التأييد. لاشك، بالنسبة لنيريري، أن المماطلة كانت تبدو المنهج الأفضل.

انفجار مع لندن

فيمـا كنـت أحاول معالجة الخلافات بيـن لوساكا ودار السلام نشبت نزاعـات بين لندن وبين فريقنا بدت وكأنها تهدد تحركنا المكوكي. ففي بداية العمل اقترحنا أن يعين كروسلاند موظفاً رفيع المستوى في فريقنـا كـي يشارك في المحادثات ويسهم في المساعدة في تعديـل النصوص المتفق عليها إذا كان ذلك ضرورياً. تملص كروسلاند من الطلب وأصر على تعييـن دبلوماسي متوسط الدرجة من سفارة واشنطن للقيـام بالاتصـالات المكوكية. وكانت حجة البريطانيين أن لندن وحدهـا يمكن أن تصادق على تعديلات النصـ المتفـق عليه مما يعزز قناعتنا بأننا نعمـل على وثيقة تحظى بموافقة الحكومـة. كان الدبلوماسي البريطاني الشاب، ريتشارد صموئيل، دمثاً ذكياً، ومتعاوناً وسرعان ما أصبح عضواً في فريقنا المفاوض.

قابـل وتحادث مع كل من تشوفيـل وروجرز وشارك في اجتماعاتنا الداخلية التي طرح فيها عدة إسهامات مفيدة. ومع هذا كان يبدو أنه ليس على اطلاع جيد على تحفظات لندن، أكثر منا على أية حال، وهو لم يثر قط أية اعتراضات أثناء الجولات المكوكية.

مـن أجـل أن أوضح تماماً بثقة أننا كنـا نتقدم بتناسق تام مع لندن، أطلعـت السفراء البريطانيين أو المبعوثيـن رفيعـي المستـوى عند كل مرحلة، وأرسلـت كل تعديل مقترح في وثائقنـا المشتركة إلى لندن. وفي ضوء التناسق التام الذي سبق مهمتي وحقيقة أن الملحق (C) كان ورقة أملتها بريطانيا كان رد فعل الممثليـن البريطانييـن هؤلاء مُحيراً. قـال السفراء (أو المبعوثون رفيعي المستـوى) إنه لا توجد لديهم تعليمات وظلوا يطرحون أسئلة توضيحية كما لو أنهم يرون الوثائق موضوع البحث لأول مرة.

أخيـراً، وعنـد عودتي إلى لوسـاكا، تلقيت رسالة من لنـدن تعترض على بياني العلنـي الذي يفيد بأن سميـث كان يأخذ بعيـن الاعتبار اقتراحات تصاغ في لندن وواشنطن. ومهمـا كان ما قاله سميث فهو في النهايـة مجـرد «عرض» روديسي، وليس موافقة على وثيقة بريطانية ـ أمريكية. ولكن كان من الواضح أن زعمـاء الخـط الأول لا يمكن أن يوافقوا على برنامج مزعوم من سميـث الذي يمثل في نظرهم إلى حد ما الروديسيـون البيضـ. وكان من المشكوك فيه كذلك أن يكون سميث مهيئاً لعرض برنامج من خمس نقاط كعمل طوعي أو أن يكون قادراً على الحصول على تأييد مؤتمره البرلماني على هذا الأساس.

وقـد عكست وسائل الإعلام البريطانية الحذر الرسمي. وقد كتبت آن أرمسترونغ، السفيرة الأمريكية الرائعة في لندن، تقول في 21 أيلول:

كان رد فعـل الصحافـة البريطانية يتصف بالشكوك تجاه «التقدم المهـم» الذي نجم عن دبلوماسية المكوك الأمريكية في جنوب أفريقية. ثمة ثلاثة موضوعات جرت في 21 أيلول وتقارير وتعليقات الصحف البريطانيـة البـارزة: (1) عاد سميث إلى حيلـه القديمة، إنه يلعب مع كيسنجر بنفـس الطريقة التي لعب بهـا مع ويلسون. في الوقت الحاضر يصعب قبول الحكـم الجماعي0 بإعجوبة (2) حتى لو كان ثمة إجماع حـول الخطوط العريضـة للتسوية، فثمة عقبات أخرى كثيـرة في الطريق، وأي تفـاؤل سابق لأوانه.. (3) التشـاؤم والحذر والاحتراس في الصحافة تعكس الأجواء في وايت هيل والتخمين الخاص لموظفي وزارة الخارجية.

خابرت بعد ذلك بفترة قصيرة المندوب السامي البريطاني في لوساكا والدبلوماسي البريطاني الذي لا حول له ولا قوة الذي كُلّف بالعمل معي. ما كنا نستطيع التحرك بدون موافقة الزعماء الزنوج، كما قلت، وهم واقعون تحت سيطرة الأكثر تطرفاً بينهم :

إذا كنـت تقـول إن جميع الأطراف قد قبلوا الاتفاقية بحرية، فإن جميـع الرؤساء الخمسة سيفرضون شروطاً مستحيلة...

أنا لا أريد تأييداً مجرداً. بل أريد تأييداً تكتيكاً واستراتيجياً. إما أن يؤيدني وإما أن يبقى بعيداً.

أجاب كروسلاند برسالة في اليوم نفسه، مكرراً الموقف البريطاني بلهجة ملطفة جداً. ووضع فاصلاً ما بين «ورقة المناقشة» والاقتراحات المطروحة بموافقة الحكومة. وهو موقف لم أواجه مثله من قبل أية حكومة بريطانية من قبل. أما بالنسبة إلى الاقتراحات التي وضعناها «فقد أيدناها بقوة ولكنها لا تتمتع بقدرة فرضها على كل جانب، إلا بالمصادقة عليها على أنها مقترحات بناءة». لم يكن الفرض مطلوباً، بل كنا نفضل أن تكون المصادقة أقل أكاديمية، ومباشرة بصورة أوضح. تمسك كروسلاند برأيه مما أظهر في الوقت نفسه لماذا وجد البريطانيون وساطتنا في قلب مستعمراتهم الأفريقية السابقة ـ حيث كانت بريطانيا في طليعة رواد المنطقة. مؤلمة جداً. إذا كنت تستطيع أن تدفع هذا إلى حيث فشلنا غالباً، فسيكون هذا انقلاباً كبيراً.

في 22 أيلول أجبت كروسلاند من كينشاسا. قل إن من المهم التمسك قدر الإمكان بالملحق (C). لا يوجد أي تساؤل من أي نوع حول شرف وضع هذا الملحق، نظراً لأنه مسودة بريطانية بالكامل. ولكن إذا لم توجد مقاييس للمفاوضات تتعلق بحكومة انتقالية، فإن كل طرف سيظهر موقف الأكثر تطرفاً، «والجدل حول توازنات القوى بين الأعراق سيكون لا نهاية له». والفوضى الناجمة ستفسد قدرتنا على مقاومة المتطرفين، والتدخل السوفييتي. الكوبي، الهدف النهائي للعملية برمتها.

سأستطرد شارحاً أصل سوء التفاهم إذا ما وجد. الملحق (C) من حق بريطانيا تماماً أن تحذفه من الوثيقة الأساسية التي طُبع معها. لا توجد سابقة أمريكية كهذه، وقد كنا نحن الذين حضّينا البريطانيين على تعيين حاكم بدلاً من الإجراءات المعقدة للملحق (C). وفي حين أن البريطانيين بعد الحدث توجهوا إلى الإشارة إلى الملحق (C) كورقة للنقاش، فإننا لم نستطيع أن نتصور فكرة وثيقة مكتوبة سُلِّمت لنا من قبل وزير الخارجية ورئيس الوزراء في غرفة رئيس الوزراء وليس لها سند رسمي ـ لاسيما أن الزعماء البريطانيين أنفسهم كانوا يعلمون جيداً أننا سنُريها لفورستر كما يشير الحوار التالي حول 4 أيلول:

كروسلاند: ستكون هنا ثانية يوم الاثنين كي تتحدث إلى رئيس الوزراء. بالطبع نحن لسنا مسؤولين رسمياً بأي شيء كحكومة. إذا كانت البشائر طيبة في يوم الاثنين..

كيسنجر: أنا بالطبع أفترض أنك مستعد للقبول بورقة موقعة من جانبنا معاً.

كروسلاند: بالتأكيد، ولكنني لا أستطيع أن أُعلمك بما سيفعله رئيس الوزراء.

كيسنجر: الوثيقة هي نفسها.

دوف: الملحق الجديد (C) يتناول الحكومة المؤقتة.

كيسنجـر: هل تستطيع أن تعطينا الملحق (C) ؟ إذا وافقنا عليه، فنحن نستطيع إعطاءه إلى جنوب أفريقية.

دوف: نعم.

في 6 أيلول، في اجتماع مع المستشارين في «10 داونينغ ستريت»، حيث كاشفت كالاهان حول الاجتماع مع فورستر، جرى هذا الحوار حول الملحق المذكور، مما أظهر ثانية أن البريطانيين كانوا يعون أن الوثيقة هم الذين وضعوها:

كيسنجر: هل أنت راضٍ حول تبادل المعلومات ؟

كروسلاند: بالطبع. والأسبوع الأخير كان نموذجاً مطلقاً.

كيسنجـر: فـي روديسيا: نعلم أن بريطانيـا اعتبرتها علامة مهمة على الإيمـان بإزاحة سميث. وقد أعطينا فورستر الوثيقة.

كيسنجر: لقد ناولناه الملحق (C) المعدل. وهناك عدة أسئلة حول ذلك، ولكنهم يعتقدون أنها أساس معقول للمناقشة.

بعد اللقاء أخذني كالاهان وكروسلاند إلى غرفة المكتب وتمنيا لي الحظ، وأكدا على أنهما يساندانني. واعتبـرت ذلك مصادقة رئيـس الوزراء التي أشار إليها كروسلاند كما أكد قبـل يومين . استعدت الحوار بالتفصيـل لأن بعض تقديرات الموقـف كانت بمثابـة أوهام تتهـم الأمريكيين بنشـر الفوضى ممزوجة بالحماسة والسذاجة، إلى أن أنقذهم في آخر لحظة البريطانيون الأكثر نضجاً [6].

كنا نتحرك بخطا متوافقة مع الحكومة البريطانية : كنت أقابل كالاهان وكروسلاند قبل وبعد كل رحلة مباشرة. وخلال الفترة ما بين نيسان وأيلول، التقيت مع كروسلاند ثماني مرات أخرى، وكان المساعدون مـن موظفينـا يلتقون مراراً. وقد قدم روجـرز وتشوفيل الخطة الاقتصادية البريطانيـة إلى رؤساء الخط الأول. راجعـت مبـادئ الملحق (C) مع رؤساء الخـط الأول قبل زيارتي إلى بريتوريـا . وكل ذلك بموافقة البريطانيين الصريحة. وخلال هذه الجولات المكوكية التقيت بالسفراء البريطانيين قرابة عشر مرات.

عندمـا انفجـر كل شيء كتـب إلي كروسلاند بأننـي أحتاج إلى فهـم أفضل لطبيعـة وزراء الحكومة. وبوصفـي أستاذاً سابقاً في العلوم السياسية كنت أفهـم وزراء الحكومة بشكل كاف. ما لم أفهمه هو كيف لـم تعـد وثيقة سلمتها في 10 داونـنغ ستريت، وجلت بها حول كل أفريقية، والتي حُوّلت إلى حكومات أخرى بمعرفة بريطانيا، لا تصل ثانية إلى السلطات التي أصدرتها.

حُـلّ هـذا اللغز فـي 23 أيلول عندما وصلت لى لندن مـن كيتشاسا في الساعة التاسعـة مساء. مأساة المواقـف الأمريكيـة لحقت بي. حياني كروسلانـد والسفيرة أرمسترونغ في المطـار. رافقني السفير إلى

obeikandl.com

الفندق كما يقتضي البروتوكول. ولكن كروسلاند كانت لديه أفكار أخرى. أخبرني أن الأعضاء الرئيسيين في الوزارة ينتظرون في مقر الحكومة في 10 داوننغ ستريت. سوف يرافقني إلى هناك، ولكنه يود أولاً أن يتحدث إلي على انفراد.

كانت السفيرة المقتدرة حزينة ومُحرجة لأن كروسلاند لم يقم بدعوتها إلى اجتماع الحكومة. وفي السيارة أوضح لي كروسلاند لماذا لا يريد أي شاهد على حديثنا. قال لي إن الملحق (C) لم يُرفض من الحكومة فحسب، بل إنه لم يعرض على الحكومة أساساً. سيكون من المحرج لرئيس الوزراء إذا كررت أمام المجلس قناعتي بأنني كنت أطرح اقتراحاً بريطانياً ـ أمريكياً مشتركاً. كان بوسعي أن أتكلم عن فكرة مشتركة، بل وعن خطة مشتركة طالما أضطلع بمسؤولية إجراء فعلي ومادة للمناقشة.

لم يشرح كروسلاند لماذا اختار كالاهان مثل هذا الأسلوب المعقد. لعله ظن، استناداً إلى خبراته، أنني سأخفق، ولم يشأ أن يخاطر بخلاف داخل حزب العمل حول خصومة تشمل كلاً من فورستر وسميث. أو أراد المحافظة على أقصى درجة من حرية العمل لمتابعة المفاوضات إذا نجحت سياسة المكوك. وأياً كان السبب، فأنا لا أستطيع أن أنسى الدعم القوي الذي تلقيناه من كالاهان عبر السنوات أو الصداقة التي كان يظهرها لي. لهذا تابعت باقتراح سُريالي إلى حد ما بأنني أحضّ الحكومة البريطانية أن تصادق على مفاوضات تستند إلى وثيقة تقوم أساساً على فكرة وزير الخارجية ورئيس الوزراء البريطانيين.

جعل كالاهان الأمور أسهل ما يمكن بتحيتي خارج 10 داوننغ ستريت. وأعلم الصحافة المنتظرة أنني أعمل (ضمن إطار شخصي من أجل خطة عامة) تقوم على اقتراحه الخاص في 22 آذار. وهذه صيغة تجعل المخططين يشعرون بالفخر. ودفعني كالاهان إلى قاعة اجتماع الوزراء، تاركاً الصحفيين يفسرون عبارته كما يشاؤون. حيث أطلعت أعضاء الحكومة على المفاوضات دون ذكر الملحق (C) أو الإشارة إليه. وعندما انتهيت استعاد كالاهان مظهره من خلال تقديمه لي إلى أعضاء حكومته:

أحب أن أقول لك بكل صراحة يا هنري، في مجلسنا ثمة رفض ملحوظ للتورط لأننا عانينا من ذلك من قبل. بالنسبة لنا مشكلة روديسيا تمثل دين شرف. ليس لدينا مصلحة إلا حل المشكلة. تستطيع أن تتخيل، في وضعنا الاقتصادي الحالي وركام المشكلات الأخرى، ليس لدينا رغبة في المجلس للدخول في المشكلة ثانية. الخلاف الكبير الآن أن سميث سوف يصرح، وربما ستكون أنت راغباً في مساعدته. على هذا الأساس سأكون سعيداً بأن أنصح الحكومة بالسير قُدماً.

وهذا ما فعله المجلس، مع مساعدة لا تقدر بثمن من جانب مايكل فوت الذي كان خير معين لكالاهان والأكثر اهتماماً عندما بدأت العملية.

وفي اليوم التالي عقدت أنا وكروسلاند مؤتمراً صحفياً مشتركاً أكدنا فيه أننا شرعنا في عملية مشتركة وعبّرنا عن استمرارنا في ذلك.

فـي مسـاء يوم الجمعة، 24 أيلول وافـق إيان سميث على النقاط الخمسـ بطريقة تدل على الانزعاج. وأوضح أنه استسلم للضغط:

إنكـم تعون جميعاً أنني عقدت مؤخراً سلسلة من الاجتماعات في بريتوريا، أولاً مع رئيس وزراء جنوب أفريقية، ثم مع د. كيسنجر، والسيد فورستر معاً.

وفـي هذه الاجتماعات قد نوقش وضع روديسيا في علاقتها مـع بقية دول جنوب أفريقية، وبالتأكيد مع الدول الغربية، بالتفصيل الواسع. وكان من الواضح تماماً بالنسبة لي ولزملائي الذين صاحبوني أنه طالما أن الظروف الراهنة في روديسيا سائدة، يمكن ألا نتوقع مساعدة أو تأييداً من أي نوع من العالم الخارجي. بـل على العكس فإن الضغوط علينا من العالم الحر سـوف تستمر في التصاعد. إن الدكتور كيسنجر يعمل بالتشاور الوثيق مع الحكومة البريطانية، وهو يحظى بتأييد كامل من قوى غربية أخرى قوية.

نشرت الحكومة البريطانية بياناً عن رضاها لقبول سميث مقترحات تمثل مجموعة من الأفكار وضعها الزعمـاء الأمريكيون والبريطانيون كما قبلها زعماء الخـط الأول. والتي وضعت بسبب التوترات في نهاية الرحلات المكوكية والتي تتضمن تكريماً لدوري:

وأضافت إلى ذلك حكومة جلالتها بأحر التهنئة لوزير خارجية أمريكا، د. هنري كيسنجر الذي أوصل الأمـور إلـى هذه النتيجة. إن الرجـال أصحاب النوايا الحسنة في كل مـكان مدينون له وكذلك لجميع من أسهموا في نجاحه. إنه دين يستحق التقدير العميق. ما كان يمكن تحقيق ذلك بدون مهارته وحماسته.

العودة إلى واشنطن

رد فعـل حكومتي كان أقل رقة. إذ ألقى الرئيس فـورد ببيان موجز في غرفة المؤتمرات الصحفية في البيـت الأبيض في 24 أيلـول. دعا البيان الفرقاء أن يوفروا بسرعة الشـروط من أجل حكم الأغلبية حيث يعيش جميع سـكان روديسيا في وئام. ومدح البيان كالاهان وفورستر، وزعماء خط الجبهة الأفارقة، ومن بينهـم (ضمناً) إيان سميـث. وتجاهل البيان فقط وزير الخارجية الأمريكية. ومـا كان قد حدث أن بياناً صاغه العاملون معي وتضمن إشارة صغيرة إلى دوري قد نشر من قبل مستشاريّ السياسيين وتجاوز فورد وذكـر أنـه تمت المصادقة عليه من قبـل «مجلس الأمن القومي» كنا في حمأة حملـة الرئاسة الانتخابية، واستخلص مستشـارو فورد أن ذكر اسمي سيُغضب بعض من يصوتون لفورد. لقد أصبحت عبئاً سياسياً. ولأنني أدركت السبب فقد قررت أن تكون هذه جولتي المكوكية الأخيرة. وإذا ما جاء فورد عبر الانتخابات، يكون الوقت قد حان بالنسبة لي كي أغادر منصبي.

فـي 26 أيلول رد زعماء الخط الأول الخمسة على ما أذاعـه سميث ببيان هجومي. فترحيبهم الشديد «بسقـوط» حكم الأقليـة العنصرية غير الشرعي في جنـوب روديسيا أعطى مصداقيـة للقاتلين من أجل

الحرية على إنجازهم. ودعا البيان إلى تشكيل عاجل لحكومة مؤقتة وعقد مؤتمر دستوري، وإدانة مقترحات سميث بوصفها «تُشرعن البنى الاستعمارية والعنصرية للسلطة». وتركت تفاصيل الحكم الانتقالي إلى المؤتمر وأراد زعماء الخط الأول إعلان النصر، وليس انتصار الدبلوماسية، واعتبار حكم الأغلبية على أنه قد فُرض على الاستعماريين، وليس صفقة تم الوصول إليها بالتعاون معهم.

شوهت الحرب الكلامية حقيقة أن زعماء الخط الأول كانوا قد قبلوا بالبنية التحتية لاقتراحنا: حكومة انتقالية تليها جمعية تأسيسية تستند إلى «مجلس دولة» تُعيّنه بريطانيا. كل ما رفضوه صراحة هو وجود وزيرين أوروبيين للأمن، وهو ما كنت حذرت سميث منه لأنه لم تجر الموافقة عليه لا من قبل بريطانيا ولا من قبل زعماء الصف الأول.

في هذا الوقت كنا قد اعتدنا وبدرجة كافية على العادات التقليدية وعرفنا أن التفسيرات الملطفة سوف تلي الكلام الحماسي لزعماء الخط الأول. وما حدث بالفعل أن نيريري دعا في 27 أيلول السفير الأمريكي والبريطاني إلى دار السلام وعبر عن امتنانه لردود الفعل الأمريكية والبريطانية الإيجابية لبيان لوساكا. وقال إن تفسيرهما لبيان الزعماء كان صحيحاً حقاً: إنه لا يعتبر رفضاً، وأكد، مُبدياً المرونة أن الأفارقة سيذهبون إلى مؤتمر بدون شروط مسبقة خاصة بهم. وأضاف نيريري أنه لن يعترض على وجود وزيرين للأمن من البيض، إذا ما قبلت بهما جميع الفصائل الروديسية، رغم أنه شخصياً غير موافق على الفكرة.

كان الزعماء الزامبيون أكثر إيجابية أيضاً. فقد كان مزاج كاوندا، بحسب كلام مارك تشونا، يعبر عن «ابتهاج». واعتبر جميع زعماء الصف الأول إعلان سميث «اختراقاً حقيقياً». وأضاف كاوندا تعليقه: لقد وافق زعماء الصف الأول على الإطار الأساسي، حتى إلى حد فصل مشكلة تشكيل حكومة انتقالية عن وضع مسودة الدستور.

نيريري المتعاون في إحداث الاختراق والمعارض لمنفذيه، كتب إلي برقة في 5 ت1 واضعاً إصبعه على عدة موضوعات مترابطة :

أنت وأنا يا دكتور كيسنجر لدينا «مواقف» مختلفة جداً سياسياً، ينبغي أن نضعها في الحسبان. ومن المؤكد وجود خطر أننا حين نتعامل معها سيبدو كل واحد منا حساساً تجاه الآخر. من المؤكد أننا نستطيع أن نعقد المشكلات، إلا أنني آمل من خلال صلة الصداقة والصراحة أن نقلص من سوء التفاهم بيننا إلى الحد الأقصى.

ولا شيء بالتأكيد يُضعف احترامي لك كإنسان، وهو الاحترام الذي نما خلال اجتماعاتنا، أو من المتعة خلال العمل معاً. آمل أن نلتقي يوماً ما في المستقبل في ظروف أفضل، مع حرية تبادل الأفكار حول موضوعات خلاف زامبابوي وناميبيا !

في 28 ت1 بدأت المفاوضات حول ناميبيا في جنيف. وفي 2 ت2 خسر جيرالد فورد الانتخابات لصالح جيمي كارتر.

كنا نتوقع دوماً أن البريطانيين سيتابعون نهج حزب العمال فيما بيننا وبينهم في متابعة المفاوضات. ولكن مع هزيمة فورد ظهر الخلاف بيننا وبين البريطانيين. والذي كان في صلب الملحق (C). فقد شعر الأمريكيون بالتزام أخلاقي تجاه الروديسيين وجنوب أفريقية بموجب الشروط التي جعلت إيان سميث ينصاع لحكم الأغلبية. بينما لم يكن البريطانيون يثقون بإيان سميث كلياً، وزعماء هذه الأغلبية يعارضون تماماً تأييده في كل جانب من جوانب المفاوضات، بما في ذلك حقوق الأقليات. كنا نحن والبريطانيون نتشارك في تقدير صفات نيريري وقدراته. ولكن لندن لم تكن تعارض غزواته المتكررة لتشجيع أصدقائه المتطرفين في أوساط مقاتلي حرب العصابات الروديسيين. على العكس من ذلك كنت أعتقد أن هذا يعود إلى أن نيريري كان ملتزماً بالقيام بدور رئيسي في المعسكر الراديكالي، وكان من الضروري إعطاؤه بعض الصلاحية لتقديم تنازلات عن طريق سياسة الصلابة المهذبة. وإلا سيكون أسير القوى التي يمكن أن تكتسحه في النهاية.

في المفاوضات التالية بدأت تتفكك التوازنات التي أحدثت الاختراق. رفض كروسلاند أن يترأس المؤتمر التأسيسي الذي سيعقد في جنيف. كان ايفور ريتشاردز، الذي أنيطت به هذه المهمة حديث العهد بالمشكلات الأفريقية وتعوزه المساندة السياسية التي يمكن أن تحد من عواطف الأحزاب. وبقينا لبضعة أسابيع نتعامل مع الدبلوماسية كما لو أن نتائج الانتخابات عقبة أخرى لا بد من مواجهتها. ولكن زعماء العالم كانوا ينتظرون على نحو صحيح الإدارة الجديدة أن تستلم السلطة وبالتالي كانوا يضيعون الوقت.

وعندما استلمت إدارة كارتر حاولت أن تميز نفسها عن إدارة فورد عن طريق سياسة أكثر وضوحاً بالنسبة لحقوق الإنسان تجاه جنوب أفريقية. وبهذه العملية دفنت دوافع فورستر كي يساعد روديسيا وناميبيا، وسرعان ما انهار مؤتمر جنيف في الرمال بعد أن استلمت الإدارة الجديدة السلطة.

ومع هذا فقد كانت روديسيا الآن تسير في طريق حكم الأكثرية دون رجعة. فقد حاول سميث أن يتفاوض حول ذلك مباشرة مع مختلف زعماء المقاومة «الداخلية»، ولكنهم لم يستطيعوا التفاهم مع «حاملي البنادق»، وفي النهاية فإن مارغريت ثاتشر، التي أصبحت رئيسة للوزراء، دعت إلى مؤتمر حول حكم الأكثرية الروديسية في «لانكاستر هاوس». وأمسكت بزمام الأمور وعينت حاكماً بريطانياً و«مجلس دولة» ينفذ المفاهيم الأساسية للملحق (C). وكان ثمن التأخير أن الفصائل المتطرفة من رجال حرب العصابات التي رأسها روبرت موغاباي اغتصبت السلطة تحت حكم الأكثرية. فالتأخير فعل الكثير كما كان يأمل نيريري ويخشى كاوندا. واحتاج الأمر إلى وقت طويل ـ حتى عام 1990 ـ بالنسبة إلى ناميبيا كي تحصل على الاستقلال على أساس الإجراءات التي اتخذت أثناء جولات عام 1976 المكوكية.

لقـد حققنا من المنظـور الجيوسياسي الغرض من دبلوماسيتنا الأفريقية. فبعد ستة أشهر من انهيار أنغـولا أظهرت الولايات المتحدة قـدرة مستمرة على صياغة الأحداث في أفريقيـة. وأمكن استبعاد تآكل الإيمـان بالقـدرة الغربية. فقـد استقلت روديسيا وناميبيـا، ونفذنا الإجراءات والمبـادئ التي تم الاتفاق عليهـا أثنـاء الجولات المكوكية في أفريقية. وإن تم ذلك ببطء وبظهور حكومات أكثر تطرفاً، ولا سيما في روديسيـا، خلافـاً لما كنا نريد وتم تجنب حـرب دولية في أفريقية الجنوبية، ولـم تحدث مغامرات كوبية أخـرى فـي النضال من أجل استقلال جنوب أفريقية (وإن كانت قد ظهرت في عهد من خلفونا في القرن الأفريقـي. وهـي حركـة كان من المؤكد أن نرفضهـا). والأقلية البيضاء في روديسيـا، والتي بذلنا جهداً كبيـراً كي تقبل بحكـم الأكثرية، ما تزال تعيش حتى الآن، بعد عشريـن سنة من وصف هذه الأحداث، في البلـد الجديد زيمبابوي. حتى إيان سميث ومعظم أعضـاء وزارته أصبحوا تحت حكم الزنوج (ولم يغادر إلا ربعهم ولا سيما الموظفون المدنيون في العهد القديم). أما سميث فقد اعتزل في مزرعته.

فـي هذه الفترة الكئيبة بيـن الإدارات، أظهر نيريري أبرز المواقف. فطيلة تلك الفترة العصيبة كانت علاقتنـا دافئة ومتناقضة. إذ كنت أكنّ له الكثير مـن الاحترام والمودة. وكانت المشاعر متبادلة بقدر ما يستطيع أحدنا أن يفعل وأن يحتوي نفوذ الآخر.

الآن وقد أشرفت فترة خدمتي على الانتهاء، أصبحت جميع هذه المعارك المشتركة والمتخاصمة وراء ظهرنـا. فـي 9 ك1 1976 إذ كتب إلي نيريري رسالة وكانت تعني الكثير بالنسبة إلي حتى في ذلك الحين ـ ولعل ذلك يعود لى عواطفنا المتبادلة:

د. كيسنجـر: مـن المؤكد أن رسائلنا تركز علـى الصعوبات وعدم التوافق لأنهـا كانت الكبير للجهود التـي بذلتهـا هـذه السنة من أجل الوصـول إلى تسوية على أسـاس حكم الأكثرية في زيمبابـوي وناميبيا. وعدم وجود حركة على الجبهة غير العسكرية في جنوب أفريقية أثناء عام 1976 يعود بالدرجة الأولى إلى المبـادرات التـي قمت بها والتي تتطلب الكثير من المبادرات التي اتخذتهـا والتي كانت تتطلب الكثير من الوقت والسفر والمفاوضات (التي لم تكن دوماً سهلة أو مسرّة). لا نعرف بعد، عندما تنتهي هذه الدوامة من المفاوضات، ما إذا كنا قد وصلنا إلى الهدف. فنحن نتعامل مع قضايا ذات مدى طويل أصبحت أكثر صعوبـة مع مرور الوقت. ولكـن مهما حدث أريد أن أؤكد أنني أقدر جهودك، وأنك لم تُصب بخيبة أمل أن تنتابك (سواء أكانت مؤقتة أم غير ذلك) لما كنا نفعله.

لـذا فـإن هذه الرسالة تأتيك مع أطيـب تمنياتي الحارة مرة أخرى. أنا متأكـد أننا سوف نتصل فيما بيننا في المستقبل. بعد شهر من ك2 قبل أن يحدث التغيير في الحكومة الأمريكية.